فَضْلُ الكَسْبِ والْحَثُّ عَلَيْهِ

اعلم أَنَّ السَّعْيَ فِي الأَرْضِ لَطَلَبِ الرِّزْقِ دَلِيْلُ نَزَاهَةِ النَّفْسِ وَعِزِّهَا، وَوَفْرَةِ العَقْلِ وَكَمَالِهِ، كَمَا هِيَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ المُرُوءَةِ الحَقَّةِ.

حَثَّ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عَلَىٰ السَّعْيِ فِي الأَرْضِ ابْتِغَاءً وَطَلَبًا لِلرِّزْقِ، فَقَالَ - عَزَّ مِنْ قَائِل -: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ١٠].

فَأَمَرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بالسَّعْيِ عَقِبَ الصَّلاة، لِطَلَبِ الرِّزْقِ وَالتِّجَارَة، وَلَمَّا كَانَتِ التِّجَارَةُ مَظِنَّةَ[1] الغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ الله، أَمَرَ اللهُ بالإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِه، فَقَالَ: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [المُلْك: ١٥].

---

(١) مَظِنَّةُ الشَّيْءِ - بِكَسْرِ الظَّاءِ - مَوْضِعٌ يُظَنُّ فِيهِ وُجُودُهُ.

(٢) انْظُر: «تَفْسِيرُ السَّعْدِي» (ص ٨٦٣).

وَفِي صَحِيْحِ البُخَارِيِّ مِنْ حَدِيْثِ الْمِقْدَام -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ -عَلَيْهِ السَّلَام- كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(١).

وَفِي الصَّحِيْحَيْن، مِنْ حَدِيْثِ أَبِي أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَىٰ ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ**»(٢).

وكَانَ أَصْحَابُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَّجِرُونَ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ.فَفِي الصَّحِيْحَيْن، مِنْ حَدِيْثِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -قَالَتْ: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عُمَّالَ أَنْفُسِهِمْ»(٣).

فَانْظُرْ إِلَىٰ الجِبَالِ الشَّوَامِخِ مِنْ صَحَبَةِ خَيْرِ الْمُرْسَلِيْنَ، كَيْفَ كَانُوا عُمَّالَ أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُمْ تَقُومُ عَلَىٰ أَوْسَاخِ النَّاسِ؟!!.

وَمِنْ لَطِيفِ مَا يُذْكَرُ: أَنَّ الصَّحَابِيَّ الجَلِيْلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ الأَرْقَم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عُرِضَ عَلَيْهِ جَمَلٌ مِنَ الصَّدَقَةَ، فَأَبَىٰ وَاسْتَنْكَرَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ ذَلِك، وَقَالَ لِصَاحِبِهِ: أَتُحِبُّ أَنَّ رَجُلاً بَادِنًا (٤) فِي يَوْمٍ حَارٍّ غَسَلَ لَكَ مَا تَحْتَ إِزَارِهِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٠٧٢).
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٠٧٤)، وَمُسْلِم (١٠٤٢).
(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٠٧٢)، وَمُسْلِم (٨٤٧).
(٤) بَادِنًا: أَيْ: سَمِينًا ضَخْمًا.

وَرَفْغَيْهِ [١] ثُمَّ أَعْطَاكَهُ فَشَرِبْتَهُ؟، قَالَ: فَغَضِبَ الرَّجُلُ، وَقَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكَ. أَتَقُولُ لِيْ مِثْلَ هَذَا؟، فَقَالَ عَبْدَ اللهِ بْنَ الأَرْقَمِ: إِنَّمَا الصَّدَقَةُ أَوْسَاخُ النَّاسِ، يَغْسِلُونَهَا عَنْهُمْ [٢].

وَكَانُوا - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - يُعِدُّونَ إِصْلاحَ المَالِ قِوَامَ مُرُوءَتِهِمْ، فَتَأْبَىٰ عَلَيْهِم أَنْفُسُهُمْ أَخْذُ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَهَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ تُعْرَضُ لَهُ الدُّنْيَا، فَتَأْبَىٰ عَلَيْهِ نَفْسُهُ أَخْذَهَا إِلَّا بِعَرَقِ جَبِيْنِهِ، وبِعَمَلِ يَدِهِ، وَقَالَ: - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «دُلُّوني عَلَىٰ السُّوقِ» [٣]، فَبَاعَ واشْتَرَىٰ وَرَبِحَ، وَأَخَذَ رِزْقَهُ وَرَأْسُهُ مَرْفُوعٌ، وَوَجْهُهُ بَارِزٌ، وَلَمْ يَرْضَىٰ إِلَّا أَنْ تَكُونَ يَدُهُ العُلْيَا، هَكَذا فَلْتَكُنِ العِزَّةُ !.

هُم النُّجُومُ فَسَائِلْهَا إِذَا الْتَبَسَتْ ... عَلَيْكَ عِنْدَالسُّرَىٰ - يَاصَاحِبِي - السُّبُلُ

اتَّبِعْ طَرِيقَتَهُمْ، اعْرِفْ حَقِيقَتَهُمْ ... اقْرَأْ وَثِيقَتَهُم بِالحُبِّ يَا رَجُلُ

---

(١) الرَّفْغَاد - بالفَتْح والضَّمِّ - مَا اكْتَنَفَا أَعَالِي جَانِبَي العَانَةَ عَنْدَ مُلْتَقَىٰ أَعَالِي بَوَاطِنِ الفَخْذَيْن وَأَعْلَىٰ البَطْنِ..... وَجَمْعُ الرَّفْغِ أَرْفُغٌ وَأَرْفَاغٌ، وَرِفَاغٌ.

(٢)(صَحِيح) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأ» (٢/ ١٠٠١) الحَدِيْث (١٥) وَقَالَ الشَّيْخ الأَرْنَاؤُوطُ فِي حَاشِيَتِهِ «جَامِعُ الأُصُول» (١٠/ ١٥٠) «إِسْنَادُهُ صَحِيْحٌ».

(٣)رَوَىٰ البُخَارِيُّ (٢٠٤٩)، ومُسلم (١٤٢٧) عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ - قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ فَآخَىٰ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنًىٰ فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أُقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ وَأُزَوِّجُكَ. قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَىٰ السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّىٰ اسْتَفْضَلَ أَقِطًا وَسَمْنًا، فَأَتَىٰ بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ فَمَكَثْنَا يَسِيرًا أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «مَهْيَمْ»، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: «مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟»، قَالَ: نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ -أَوْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ- قَالَ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ».

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَىٰ».

وَالْيَدُ الْعُلْيَا: الْمُنْفِقَةُ، وَالْيَدُ السُّفْلَىٰ هِيَ: السَّائِلَةُ [1].

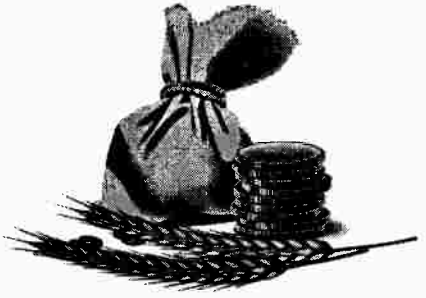

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٤٢٩)، ومُسْلِمٌ (١٠٣٣)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَا يتحلَّى بِهِ التَّاجِرُ

النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ

اعلم أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ اصْطِحَابُ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ فِي تِجَارَتِكَ، فَتَنْوِي بِهَا القِيَامُ بِحَقِّ اللهِ، والإِحْسَانِ إِلَىٰ خَلْقِهِ؛ لِتَكْمُلَ عُبُودِيَّتُكَ، وَيَعْظُمَ أَجْرُكَ.

جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**».

فَدَلَّ الحَدِيثُ عَلَىٰ وُجُوبِ اسْتِصْحَابِ النِّيَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَعْمَالِ، والأَقْوَالِ، وَالأَحْوَالِ.

فَأَنْتَ مَتَىٰ نَوَيْتَ القِيَامَ بِحَقِّ اللهِ مِنْ إِعْفَافِ أَهْلِكَ، وَالإِحْسَانِ إِلَىٰ العِبَادِ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ لَكَ العَمَلُ، وَلَمْ تُوَفَّقْ فِي تِجَارَتِكَ فَقَدْ رَجَعْتَ بِثَوَابِ ذَلِكَ العَمَلِ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١)، ومُسْلِمٌ (١٩٠٧).

والدليل: مَا جَاءَ فِي «صَحِيْحِ البُخَارِيِّ»[١] مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرتمْ مَسِيرَةً، وَلَا قطعْتمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**، -أَيْ بِنِيَّاتِهِمْ وَثَوَابِهِمْ- **حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**».

بَلْ إِنَّكَ إِذَا مَرِضْتَ أَوْ سَافَرْتَ، كُتِبَ لَكَ ثَوَابُ عَمَلِكَ، وَمَا نَوَيْتَ عَمَلَهُ.

والدليل: مَا جَاءَ فِي «صَحِيْحِ البُخَارِيِّ»[٢] مِنْ حَدِيْثِ أَبِي مُوسَىٰ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**». وَحَتَّىٰ إِذَا جَاءَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ هَذِهِ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُكَ عَلَىٰ اللهِ.

والدليل: قَوْلُ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-:

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠٠].

وَكَذَا إِذَا أَخَذْتَ أَمْوَالَ النَّاسِ دَيْنًا، وَفِي نِيَّتِكَ تُسَلِّمُهَا لَهُمْ، أَدَّىٰ اللهُ ذَلِكَ عَنْكَ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٤٢٩)، ومُسْلِمٌ (١٩١١) مِنْ حَدِيْثِ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٩٩٦).

والدليل: مَا جَاءَ فِي «صَحِيْحِ البُخَارِيِّ»[١] مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -قَالَ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا ، أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**».

قَالَ ابْنُ سَعْدِيْ - رَحِمَهُ اللهُ -: «فَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ سَبَبًا قَوِيًا لِلرِّزْقِ وَأَدَاءِ اللهِ عَنْهُ، وَجَعَلَ النِّيَّةَ السَّيِّئَةَ سَبَبًا لِلتَّلَفِ وَالإِتْلَافِ.

وَكَذَلِكَ تَجْرِي النِّيَّةُ فِي المُبَاحَاتِ، وَالأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَإِنْ قَصَدَ بِكَسْبِهِ وَأَعْمَالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالعَادِيَّةِ الاسْتِعَانَةَ بِذَلِكَ عَلَى القِيَامِ بِحَقِّ اللهِ، وَقِيَامِهِ بِالوَاجِبَاتِ وَالمُسْتَحَبَّاتِ، وَاسْتَصْحَبَ هَذِهِ النِّيَّةَ الصَّالِحَةَ فِي أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَنَوْمِهِ وَرَاحَاتِهِ وَمَكْسَبِهِ، انْقَلَبَتْ عَادَاتُهُ عِبَادَاتٍ، وَبَارَكَ اللهُ لِلعَبْدِ فِي أَعْمَالِهِ، وَفَتَحَ لَهُ مِنْ أَبْوَابِ الخَيْرِ وَالرِّزْقِ أُمُورًا لاَ يَحْتَسِبُهَا وَلاَ تَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ.

وَمَنْ فَاتَتْهُ هَذِهِ النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ لِجَهْلِهِ أَوْ تَهَاوُنِهِ، فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ[٢].

دُرَرٌ:

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«العَمَلُ بِغَيْرِ إِخْلاَصٍ ولاَ اقْتِدَاءٍ كَالمُسَافِرِ يَمْلأُ جِرَابَهُ[٣] رَمْلاً يَنْقُلُهُ، وَلاَ يَنْذَعُهُ». «الفَوَائِدُ» (ص٦٧).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٣٨٧).

(٢) انْظُر: «بَهْجَةُ قُلُوبِ الأَبْرَارِ» (ص٦).

(٣) الجِرَابُ - بالكَسْرِ -: الوِعَاءُ، وَالجَمْعُ أَجْرِبَةٌ، وَجُرُبٌ - بالضَّمِّ والضَّمَّتَيْنِ.

التَّوَكُّلُ

اعلم أَنَّ التَّوَكُّلَ: اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ، وَتَفْوِيْضُ الأَمْرِ إِلَيْهِ فِي جَلْبِ الْمَسَارِّ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ ثِقَةً بِتَدْبِيْرِهِ، وَاعْتِمَادًا عَلَىٰ كِفَايَتِهِ.

التَّوَكُّلُ: هُوَ قِيَامُ الجَوَارِحِ بِالأَسْبَابِ، وَاعْتِمَادُ القَلْبِ عَلَىٰ مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عَنْ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ -:

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مَرْيَمَ: ٢٥].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيْرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«وَهَذَا دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَأْمُرُ بِاتِّخَاذِ الأَسْبَابِ، كَمَا دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَهُزِّيٓ ﴾ فَأَمَرَ اللهُ بِاتِّخَاذِ الأَسْبَابِ، مَعَ إِمْكَانِ تَقْدِيمِ ذَلِكَ الرُّطَبِ فِي صَحَائِفَ مِنْ ذَهَبٍ»[1].

---

(١) «تَفْسِيْرُ ابْنِ كَثِيْرٍ» (٣/ ١١٧).

قَالَ الشَّاعِرُ:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ... وَلاَ تُؤْثِرَنَّ الْعَجْزَ يَوْمًا عَلَى الطَّلَبْ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمَ: ... إِلَيْكِ فَهُزِّي الْجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ

وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا ... جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيءٍ لَهُ سَبَبْ

وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ، رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ، فَلاَ يُبْطِرُهُ الكَثِيْرُ، ولا يُحْزِنُهُ القَلِيْلُ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِأَنَّ خَالِقَهُ وَرَازِقَهُ تَفَرَّدَ بِالخَلْقِ وَالتَّدْبِيْرِ، وَالضُّرِّ والنَّفْعِ، وَالعَطَاءِ والمَنْعِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن.

يَشْكُرُ عِنْدَ الوُجُودِ، وَيَرْضَى عِنْدَ العَدَمِ، بَرَاءٌ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ، قَدْ سَلَّمَ أَمْرَهُ كُلَّهُ للهِ، لِسَانُ حَالِهِ وَمَقَالِهِ: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ**»(١).

وَهُوَ - أَيْضاً - مُؤْمِنٌ بِأَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لاَ يَنَالُ بِحِيْلَةٍ مُحْتَالٍ، أَوْ مَكَانَتِه، أَوْ قُوَّتِه، أَوْ جَاهِهِ، وَلَكِنَّهَا أَرْزَاقٌ مَقْسُومَةٌ، قَدْ فُرِغَ مِنْهَا، تَطْلُبُ العَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ (٢).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٤٧)، ومُسْلِمٌ (٢٧١٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الحِلْيَة» (٧/ ٩٠) بِسَنَدٍ حَسَنٍ، حَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيْحَة» (٩٥٢) مِنْ حَدِيْثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ المَوْتِ، لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ المَوْتُ».

وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُنَالُ بِفِطْنَةٍ ... وَفَضْلِ عُقُولٍ نِلْتُ أَعْلَىٰ المَرَاتِبِ

وَلَكِنَّهَا الأَرْزَاقُ حَـظٌّ وَقِسْمَةٌ ... بِمِلْكِ قَلِيْلٍ، لا بِحَيْلَةِ طَالِبِ

رَيَاحِيْنُ:

قَالَ بَعْضُ العَارِفِيْنَ:

«المُتَوَكِّلُ كَالطِّفْلِ، لا يَعْرِفُ شَيْئًا يَأْوِي إِلَيْهِ إِلَّا ثَدْيَ أُمِّهِ، كَذَلِكَ المُتَوَكِّلُ لاَ يَأْوِي إِلَّا إِلَىٰ رَبِّهِ»[1].

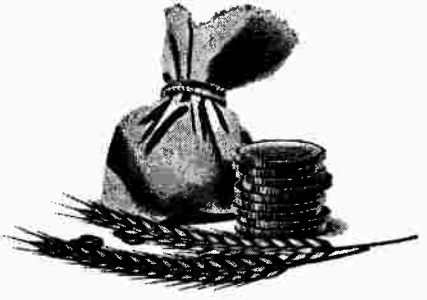

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنِ» (٢/ ١٢١).

الكَفَاف

اعلم أَنَّ الرِّضَا بِالكَفَافِ مِنَ الـرِّزْقِ وَالقَنَاعَةَ بِاليَسِيْرِ بَابٌ عَظِيْمٌ مِنْ أَبْوَابِ الرَّحْمَةِ.

تَأَمَّلْ إِلَى الأُسْوَةِ الحَسَنَةِ وَهُوَ يَدْعُو رَبَّهُ قَائِلاً: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا» (١). فَهُوَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَسْأَلْ لِنَفْسِهِ وَلأَهْلِهِ التَّوسِعَةَ، وَإِنَّمَا سَأَلَهُ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ، كَمَا قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ (٢).

وَقَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**» (٣).

فَقَوْلُهُ: «قَدْ أَفْلَحَ» أَيْ: قَدْ فَازَ وَسَعِدَ وَنَجَحَ، وَأَدْرَكَ كُلَّ مَا يُرَامُ.

من مشكاة النبوة:

وَقَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ** (٤)، **وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٤٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٧١٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٤٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٧١٠).

(٢) نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُمُ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ شَرْحِهِ الحَدِيْثَ (١٠٥٥) عَلَى مُسْلِمٍ.

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٠٥٤) عَنِ ابْنِ عَمْرٍو.

(٤) العَرَض -بِفَتْحَتَيْنِ- مَتَاعُ الدُّنْيَا.

القَنَاعَةُ

اعلم أَنَّ القَنَاعَةَ كَنزٌ لاَ نَعَادَلَهُ، مَنْ حَازهَا حَاز خَيْرًا كَثِيْرًا، وَخَطَرًا عَظِيْمًا،وَكَانَ فِي ذِمَّـةِ الحَمْدُ وَالسَلاَمَةِ.

مَنْ أَرَادَ الحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، لَزِمَ القَنَاعَةَ، فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْن أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحْل:٩٧].

قَالَ: «القَنَاعَةَ»، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاس وَعِكْرِمَةُ وَوَهبُ بْن مُنَبِّه [١].

وَهَذَا هُوَ الوَاقِعُ؛ فَالقَانِعُ بِمَا آتَاهُ اللهُ مُرْتَاحُ النَّفْسِ هَادِيءُ الطَّبْع، لَيْسَ لِلشُّكُوكِ وَالاعْتِرَاضِ وَالأَمَانِيِّ الفَارِغَةِ - مَكَانٌ فِي قَلْبِه، فَكَأَنَّهُ فِي عَالَمٍ آخَرَ غَيْرِ عَالَمِنَا، وَتِلْكَ لَعَمْرِي - هِيَ الحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ، وَالعَيشَةُ الهَانِئَةُ.

وَهَا هُوَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَحُثُّ ابْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَلَى لُزُومِ القَنَاعَةِ بِقَوْلِهِ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّك غَرِيْبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ**» [٢].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٤١٦).

(٢) «رَوْضَةُ العُقَلاَء» (ص٢٥٥).

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«أَمَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ابْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي هَذَا الخَبَرُ أَنْ يَكُونَ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُ غَرِيْبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ، فَكَأَنَّهُ أَمَرَهُ بِالقَنَاعَةِ بِاليَسِيْرِ مِنَ الدُّنْيَا، إِذَ الغَرِيْبُ وَعَابِرُ السَّبِيْلِ لاَ يَقْصِدَانِ فِي الغَيْبَةِ الإِكْثَارَ مِنَ الثَّرْوَةِ، بَلِ القَنَاعَةُ إِلَيْهِمَا أَقْرَبُ مِنَ الإِكْثَارِ مِنَ الدُّنْيَا» (١).

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ -: «مِنْ أَكْثَرِ مَوَاهِبِ اللهِ لِعِبَادِهِ وَأَعْظَمِهَا خَطَرًا -القَنَاعَةُ-، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَرْوَحَ لِلبَدَنِ مِنَ الرِّضَا بِالقَضَاءِ، والثِّقَةِ بِالقَاسِمِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلقَنَاعَةِ خَصْلَةٌ تُحْمَدُ إِلَّا الرَّاحَةُ، وَعَدَمُ الدُّخُولِ فِي مَوَاضِعِ السَّوْءِ لِطَلَبِ الْفَضْلِ - لَكَانَ الوَاجِبَ عَلَى العَاقِلِ أَلَّا يُفَارِقَ القَنَاعَةَ عَلَى حَالَةٍ مِنَ الأَحْوَالِ» (٢).

كَنْزٌ:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ -رَحِمَهُ اللهُ -: «القَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ».

رَوْضَةُ العُقَلاء» (ص ٢٥٦).

---

(١) انْظُرْ: تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيْرٍ (٤/ ٣٤٣). وَرَوَى العَسكَرِيُّ - أَيضًا- فِي الأَمْثَالِ «عَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - نَحْوَهُ»، انْظُر: «فَتْحُ القَدِيْرِ» (ص٩٧٥).

(٢) «رَوْضَةُ العُقَلاَءِ» (ص٢٥٦).

الخُلُقُ الحَسَنُ

اعلم أَنَّ التَّاجرَ الَّذي يَتَحَلَّىٰ بالأَخْلاَق العَالِيَةِ يُحِبُّهُ النَّاسُ، وَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ لِشرَاءِ حَاجَاتِهِمْ مِنْهُ، وَفِي نَفْسِ الوَقْتِ يَقْتَبِسُونَ مِنْ أَخْلاَقِهِ وأَدَبِهِ.

مَنْ مِنَّا يَعْرِفُ أَنَّ الإِسْلاَمَ مَا انْتَشَرَ فِي جُزُر الهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ: كَأَنْدُونِسْيَا، وَالفِلِبِّين، وغَيْرِهَا مِنَ الجُزُرَ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التُّجَّارِ الحَضَا رمَةِ وَغَيْرِهِمْ.

لَقَدْ كَانُوا آيَةً فِي حُسْنِ الأَخْلاقِ، وَكِتَابًا مَفْتُوحًا يُمَثِّلُ الإِسْلاَمَ فِي نَقَائِهِ وَصَفَائِهِ، فَكَانُوا سَبَبًا فِي دُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا.

وَأَعْرِفُ تَاجِرًا يَمْتَلِكُ مَحَلًّا صَغِيْرًا أَقَامَ دَعْوَةً وَاسِعَةً، امْتَدَّتْ إِلَىٰ عِدَّةِ دُوَلٍ، وَلاَ يَزَالُ عَلَىٰ قَيْدِ الحَيَاةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلاَلِ أَخْلاَقِهِ العَالِيَةِ، وَحُسْنِ تَعَامُلِهِ مَعَ القَرِيْبِ والبَعِيْدِ، يَأْتِيْهِ الصَّغِيْرُ وَكَأَنَّهُ وَجَدَ أَبَاهُ، وَالكَبِيْرُ وكَأَنَّهُ عِنْدَ وَلَدِهِ، وَالغَرِيْبُ وَكَأَنَّهُ بَيْنَ أَهْلِهِ؛ لِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الحُنُوِّ وَالعَطْفِ وَجَمِيْلِ المُعَامَلَةِ، وَقَدْ بَارَكَ اللهُ فِي رِزْقِهِ، وَجَرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ الخَيْرُ الكَثِيْرُ، فَمَا يَمْنَعُكَ

مِنَ التَّخَلُّق بِأَخْلاَق الإسْلاَم؟ [١]، فَإِنَّهُ يَجْعَلُكَ قَرِيْبَاً مِنَ اللهِ، قَرِيْبَاً مِنَ النَّاسِ، قَرِيْبَاً مِنْ كُلِّ خِيْرٍ وَبِرٍّ.

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**» [٢].

(١) انْظُر: «الأَخْلاقُ بَيْنَ الطَّبْعِ والتَّطَبُّعِ» لِلمُؤَلِّف، فَفِيْهِ مَا يَكْفِي وَيَشْفِي إِنْ شَاءَ اللهُ.

(٢) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٥/ ١٣٥-١٥٨)، والتِّرْمِذِيُّ (١٩٨٧) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي ذَرٍّ وَمُعَاذٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيْحِ الجَامِعِ» (١/ ٩٧).

التَّبَسُّمُ

اعلم أَنَّ المَثَلَ الصِّينِيَّ يَقُولُ: «الَّذِي لا يُحْسِنُ التَّبَسُّمَ لاَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَفْتَحَ مَتْجَرًا».

وَهُوَ مَثَلٌ رَائِعٌ، سَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ؛ لأَنَّ الوَاقِعَ يُصَدِّقُهُ.

التَّبَسُّمُ مِفْتَاحٌ مُؤَكَّدُ النَّتِيْجَةِ لِفَتْحِ كَثِيْرٍ مِنَ القُلُوبِ، وَكَانَتِ البَسْمَةُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَىٰ قَلْبِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فَفِي «الصَّحِيْحَيْنِ»[1]، مِنْ حَدِيْثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «مَا رَآنِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَّا وَتَبَسَّمَ فِي وَجْهِي».

بَلْ كَانَتِ البَسْمَةُ مِنْ ضِمْنِ وَصَايَاهُ لِلنَّاسِ، حَتَّىٰ رَفَعَهَا إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ الصَدَقَةِ.

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[2].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٤٧)، ومُسْلِمٌ (٢٧١٠).

(٢) «صَحِيحٌ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١٩٥٦) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الجَامِعِ» (٢٩٠٨)، و«الصَّحِيحَة» (٥٧٢).

وَحَقَّقَ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لِقَاءَ النَّاسِ بِوَجْهٍ طَلِيْقٍ - أَيْ: باسِمٍ- مِنْ قَبِيْلِ المَعْرُوفِ.

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:«**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا،وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١).

ازْرَعِ البَسْمَةَ فِي الكِوْنِ وَلا ... تَقْتُلِ الحُسْنَ بِخَلْقِ الحَـزِنَ

كُنْ سَفِيرَ السَّعْدِ فِي كِوْكَبِنَا ... بِابْتِسَامٍ، مِثْلَ طَـــهَ فَكُنْ

كَـانَـتِ البَسْمَةُ لا تَهْـجُـرُهُ ... ابْتِسَامُ المَـرْءِ بَعْضُ السُّنَنِ

رُتِّبَ الأَجْرُ عَلَىٰ البَسْمَةِ والـ ... ـعَبْسُ بِئْسِ الفِعْلُ بَخْسُ الثَّمَنِ

من أخلاق النبوة:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ:«مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

(١)رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٢٦).

(٢) (صَحِيحٌ): رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٤١)، وصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٨٨٠).

الصَّبْرُ

اعلم أَنَّ الصَّبْرَ عِطْرُ الأَخْلاَقِ، وَنَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِهِ، يَحْتَاجُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَأَحْوَجُ النَّاسِ إِلَيْهِ التَّاجِرُ الْمُسْلِمُ.

التَّاجِرُ مَتَىٰ مَا تَحَلَّىٰ بِالصَّبْرِ، أَحَبَّهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ دَلِيْلُ الثِّقَةِ بِوَعْدِ اللهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَقْدُورٍ آتٍ لاَ مَحَالَةَ، فَإِنْ سَاوَمَ عَلَىٰ السِّلْعَةِ فَبِصَبْرٍ جَمِيلٍ، وَابْتِسَامَةٍ مُشْرِقَةٍ، وَنَفَسٍ طَوِيلٍ، وَإِنْ أَبْدَىٰ زَبُونُهُ مُلاَحَظَاتٍ عَلَىٰ السِّلْعَةِ أَوْ عِتَابٍ، قَبِلَهُ بِحِلْمٍ وَتَحَمُّلٍ وَتَجَمُّلٍ، إِنْ كَانَ ثَمَّةَ خَطَأٌ مِنَ الزُّبُونِ نَفْسِهِ نَتِيْجَةَ سُوءِ الفَهْمِ أَوْ نَحْوِهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ العَيْبُ فِي السِّلْعَةِ نَفْسِهَا، قَابَلَ ذَلِكَ بِالشُّكْرِ، وَالثَّنَاءِ الجَمِيْلِ، وَالاعْتِذَارِ البَالِغِ، وَإِشْعَارِهِ أَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَتَكَرَّرَ مِنْهُ، مَعَ تَشْجِيْعِهِ عَلَىٰ الاسْتِمْرَارِ فِي النَّصَائِحِ، وَإِخْبَارِهِ أَنَّ نَصِيْحَتَهُ غَالِيَةُ الثَّمَنِ، لاَ تُقَدَّرُ بِمَالٍ.

وَالصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ فِي التِّجَارَةِ أَوْ غَيْرِهَا صِنْوَانِ لاَ يَفْتَرِقَانِ، بَلِ الصَّبْرُ هُوَ الأَصْلُ، فَإِذَا وُجِدَ الصَّبْرُ فَالسَّمَاحَةُ مَعَهُ [1].

---

(١) مَنْ أَرَادَ الوُقُوفَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الصَّبْرِ وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلصَّابِرِيْنَ، فَعَلَيْهِ بِكِتَابِ «جَنَىٰ اللُّبَابِ فِيمَا وَرَدَ فِي الصَّبْرِ وَالاحْتِسَابِ» لِلشَّيْخَةِ الفَاضِلَةِ أُمِّ الفَضْلِ أَمَةِ الرَّحْمَنِ بِنْتِ عَلِيٍّ الفَقِيْهِ.

من مشكاة النُّبوَّة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «الإِيمَانُ الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ»(١).

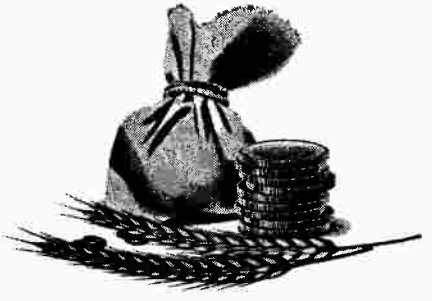

(١)(صَحِيحٌ)أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَأَبُو يَعْلَىٰ عَنْ جَابِرٍ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَة» (٥٥٤).